المجلة العلمية لكلية الآداب مج 12، ع 1 (2023)، 247 - 275
المجلة العلمية لكلية الآداب
https://artdau.journals.ekb.eg/

قيم المديح في شعر حَيْصَ بَيْص (ت574هـ)

إسراء سامي محمد صابر عبد الحليم
طالبة ماجستير – قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة دمياط.

المستخلص

تتناول الباحثة قيم المديح في شعر حيص بيص، وتدرسه من خلال تمهيد وثلاثة مباحث. يتحدث التمهيد عن نسب حيص بيص وحياته وشعره، ثم يأتي عرض لقيم المديح التي يمدح بها الشعراء ممدوحيهم، ثم يأتي المبحث الأول فيتحدث عن صفة الشجاعة، ويتناول المبحث الثاني صفة الجود والكرم التي مدح بها ممدوحيه ويأتي المبحث الثالث ليتناول صفات الحكمة وحسن التدبير ورفعة الشأن، ثم يُختم البحث بأبرز النتائج التي توصلت إليها الباحثة، يتناول هذا البحث قيم المديح في شعر حيص بيص (ت574هـ)، وهي: الشجاعة والكرم وحسن التدبير، والتواضع، والحلم وجمال المحيا، والنجدة، وإغاثة الملهوف، وترجع أسباب اختيار الموضوع إلى أهمية الشاعر بالنسبة لعصره، وسيطرة شعر المديح على ديوانه، وإعطاء صورة وافية عن قيم المديح في شعر حيص بيص، هذا وتهدف الدراسة إلي بيان شخصية الشاعر كتمهيد ضروري للدراسة، ودراسة التجربة الشعرية للشاعر وقيم المديح لديه والعوامل التي أدت إلى تشكل هذه القيم. اعتمدت الباحثة في دراستها على ديوان الشاعرالذي حققه مكي السيد جاسم وشاكر هادي (العراق)، وقد بلغ عدد أبياته 9241 بيتًا، موزعة على 666 قصيدة، أغلبها في المديح بمعدل 74% من القصائد، والباقي موزع على أغراض أخرى. وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي وأدواته من نقد وتحليل، وذلك من خلال تتبع الظاهرة المراد دراستها ووصفها وتحليلها بشكل واضح.

الكلمات المفتاحية: حيص بيص، قيم المديح، الشجاعة، الكرم.

تاريخ المقالة:
تاريخ اســـــتلام المقالـــة: 21 يوليو 2022
تاريخ استلام النسخة النهائية: 13 أغسطس 2022
تاريخ قبـــول المقالـــــة: 10 سبتمبر 2022

Scientific Journal of Faculty of Arts 12 (1) 2022, 247 - 275
المجلة العلمية لكلية الآداب
https://artdau.journals.ekb.eg/

The Values of Praise in the Poetry of Hays Bays (d. 574 AH)

Esraa Sami Mohamed Saber Abdel Halim
Master's Student- Arabic Department -Faculty of Arts - Damietta University

Abstract

The researcher deals with the values of praise in the poetry of Hais Bais and studies it through introduction and three sections. The introduction talks about the lineage of Hais Bais, his life and his poetry, then, a presentation of the values of the praise which poets use to praise whom they want to praise. After that, the first section comes to talk about the quality of courage. Whereas the second section deals with the quality of kindness and generosity the poet has used in his praising. Subsequently, the third section comes to deal with the qualities of wisdom, good measure and high standing. Thereafter, the research is covered with the most prominent results that the researcher has reached. The study aims to clarify the poet's personality as a necessary prelude to the study, studying the poet's poetic experience and his praise values, and the factors that led to the formation of these values. In her study, the researcher relied on the Diwan of the Poet, which was reviewed and verified by Makki Al-Sayed Jassim and Shaker Hadi (Iraq). The number of its verses reached 9241 verses, distributed over 666 poems, most of which are in praise, at a rate of 74% of poems, and the rest is distributed to other purposes. The study depends on the descriptive approach and its tools of criticism and analysis, by clearly tracing the phenomenon to be studied, describing and analyzing it.

Keywords: Hais Bais, values of praise, courage and the vineyard.

Article history:
Received 21 July 2022
Received in revised form 13 August 2022
Accepted 10 September 2022

1. المقدمة :

يتناول هذا البحث قيم المديح في شعر حيص بيص (ت574هـ) وهي: الشجاعة والكرم وحسن التدبير، والتواضع، والحلم، وجمال المحيا والنجدة، وإغاثة الملهوف.

2. أسباب اختيار الموضوع :

1- أهمية الشاعر بالنسبة لعصره.
2- سيطرة شعر المديح على ديوانه.
3- إعطاء صورة وافية عن قيم المديح في شعر حيص بيص.

3. أهداف الدراسة :

1. بيان شخصية الشاعر كتمهيد ضروري للدراسة.
2. دراسة التجربة الشعرية للشاعر وقيم المديح لديه، والعوامل التي أدت إلى تشكل هذه القيم.

4. مادة الدراسة :

اعتمدت الباحثة في دراستها على ديوان الشاعر الذي حققه مكي السيد جاسم وشاكر هادي (العراق)، وقد بلغ عدد أبياته 9241 بيتًا، موزعة على 666 قصيدة، أغلبها في المديح بمعدل 74% من القصائد، والباقي موزع على أغراض أخرى.

5. منهج الدراسة :

تعتمد هذه الدراسة على المنهج الوصفي وأدواته من نقد وتحليل وذلك من خلال تتبع الظاهرة المراد دراستها ووصفها وتحليلها بشكل واضح.

6. الدراسات السابقة :

لم يحظ شاعرنا بدراسات مستقلة وافية كغيره من الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه، ولكن هناك بعض المصادر التي تناولت الشاعر وشعره منها: كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصبهاني القسم العراقي، تحقيق د.جميل سعيد، وبهجة الأثري ط.المجمع العلمي العراقي، وأورد الأصبهاني كثيرًا من شعره، وأثبت العديد من رسائله وأثنى عليه وعلى شعره.

ومن المراجع يوجد كتاب (بناء القصيدة في شعر حيص بيص) للدكتور أيمن السيد الصياد، تناول فيه آليات بناء النص الشعري عند حيص بيص في ديوانه بوجه عام، بينما تتناول دراستنا هذه مضامين شعر المديح وخصائصه الفنية، باعتباره الغرض الأبرز والأكثر شيوعًا في ديوانه.

7. حيص بيص (نسبه وحياته وشعره) :

هو أبو الفوارس شهاب الدين سعد بن محمد بن سعد بن صيفي التميمي، ينتهي نسبه إلى أكثم بن صيفي حكيم العرب المشهور، ولد في بغداد سنة 492هـ وتوفي 574هـ، وأما عن تلقيبه بهذا اللقب فيقال: إنه رأي الناس يومًا في حركة مزعجة وأمر شديد، فقال: ما للناس في حيص بيص؟ أي: في ضيق وشدة وحيرة. فاتخذ الناس ذلك لقبًا له، وساعد على رواج اللقب مُنافسة الشاعر هبة الله بن الفضل[1].

وصف شاعرنا بغزارة العلم، وتعدد جوانب الفضل، وتبحره في كثير من العلوم، بدأ في طلب العلم وهو في سن الثالثة عشرة، فدرس في المدرسة الناظمية على يد أستاذه علي بن زيد الفصيحي (ت 516هـ) وسمع الحديث من شيخ الحنفية الشريف أبي طالب الحسين بن محمد الزنيبي (ت 512هـ)، وظل يَجّد في طلب العلم حتى عاد إلى بغداد فصار يجالس الفقهاء ويناظر في الخلاف، وتعلم على يديه كثير من أولي الفضل، فكانوا يقرءون اللغة عليه ويُجيزهم بمسموعاته، ومنهم القاضي أبو العلاء أحمد بن أبي البشر شاكر بن عبد الله التنوخي المعري، وأيضًا قرأ عليه الحافظ السمعاني ديوان شعره ورسائله، والأصبهاني صاحب الخريدة[2].

---

(1) ينظر في ترجمته: - ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الصادر1978م، ج2، ص362 وما بعدها.
- ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة دار المعارف، ببيروت، 1991م، ج1، ص301.
- عماد الدين الأصبهاني: خريدة القصر،القسم العراقي، ت:محمد بهجة وجميل سعيد مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1955م،ج1، ص202 وما بعدها.
-السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ت:محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،1970م،ج7، ص91 .
- ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ت: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الأولى 1989م، ج6، ص409 .
- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغريب الإسلامي، د.ت. 11ج، ص206.
- الذهبي: سير أعلام النبلاء، ت: حسان بن عبد المنان، مؤسسة بيت الأفكار الدولية لبنان، 2004م، ص1779.
- محسن الأمين: أعيان الشيعة، ت: حسن الأمين، دار التعارف، بيروت، 1983م ج7، ص227 وما بعدها .

(2) شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي البغدادي المعروف ب(حيص بيص): ديوانه، تحقيق مكي السيد جاسم، وشاكر هادي شكر منشورات وزارة الإعلام، العراق، 1974م، ديوانه،ج1، ص38.

اشتهر أبو الفوارس بصدق اللهجة، ورصانة الخُلق، والترفع عن الصغائر، والتنزه عن المقابح، والتزام السلوك الكريم، والتأدب بآداب الشرع في أقواله وأفعاله، فصبر على كثير من الأذى مع إمكان الرد

ومن ترفعه الامتناع عن قول الغزل والهجاء إلا فيما ندر حيث أتت قصيدته في الغزل جامدة متكلفة. وذكر في مقدمة ديوانه تنصله من فلتات اللسان، وسبق الخاطر في تناول من أحرجوه وابتدءوه بأذى، فلم يسعه إلا أن يجيبهم بمثله، لكنه لم يُثبته في ديوانه، وطلب من كل من سمعه ألا يروِّيه لأحد[3].

تتناول الباحثة في هذا الفصل قيم المديح في شعر حيص بيص فتتحدث عن الصفات التي مدح بها ممدوحيه، وسبب مدحه لهم بتلك الصفات.

فإذا علمنا أن الله ميز البشر عن باقي الخلق واصطفاهم بالعقل والتكليف، أدى هذا إلى تمييزهم بصفات لا يشترك فيها غيرهم وهي: العقل والشجاعة والعفة والعدل، فكان المادح بهذه الصفات مصيبًا ومن تركها كان مخطئًا، إلا أنه يجوز المدح ببعض منها دون بعض وهذا يعد تقصيرًا في المدح[4].

هذه الصفات الأربع التي أشارت الباحثة إليها يتفرع منها صفات أخرى، فمثلا: الثقافة والسياسة والكفاية والعلم والحلم والحجة والبيان...،كلها تندرج تحت قسم العقل. أما قسم الشجاعة فيشتمل على الحماية وإغاثة الملهوف والدفاع عن الجار والنكاية بالعدو والأخذ بالثأر والسير في المهام الشاقة وملاقاة العدو. ويندرج تحت العفة القناعة وقلة الشهوة وطهارة الأردان. أما العدل فيندرج تحته السماحة وإجابة السائل والتبرع بالنائل والتغابن... .[5]

وإذا تم تركيب هذه الصفات مع بعضها ينتج ستة أقسام: فعند جمع العقل والشجاعة ينتج صبر على الملمات، والوفاء بالإيعاد، ونوازل الخطوب. وينتج من تركيب العقل مع السخاء إنجاز الوعد والبر، وما أشبه ذلك. وعند جمع العقل مع العفة فالرغبة عن السؤال والزهد في المعيشة. وعن تركيب الشجاعة مع العفة فإنكار الفواحش والغيرة على المحارم. وعن تركيب الشجاعة مع السخاء فيخرج الإتلاف والإخلاف... وعند جمع السخاء مع العفة فإيثار بالنفس وما أشبه ذلك[6]. وقد استخدم

---

(3) نفسه: ديوانه، ج1، ص39.

(4) انظر: قدامة ابن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى، صـ84.

(5) قدامة بن جعفر: نقد الشعر، صـ85.

(6) نفسه: صـ86.

الشعراء هذه الصفات في شعرهم في منزلة وسطى دون إفراط أو تفريط حتى لا يؤول بهم الحال إلى الغلو في الشعر.

وتتنوع المدائح وتختلف باختلاف أحوال الممدوحين بين رفعة منزلة أو وضاعة، وبين التبدي والتحضر، بالإضافة إلى تنوع الصناعات والحرف، ويمدح الملوك والسلاطين بالإغراق والتفضيل بما يتميزون به ولا يكون إلا له، ويُمدح الوزير والكاتب ببراعة الفكرة، وحسن التنفيذ وحسن السياسة، والخبرة بطرق البلاغة، والخط، والتبحر في العلوم والعدل، والعفة، والعقل، وشدة الحزم، وحسن الرويَّة، والإنابة عن الملك في المعضلات، ويُمدح القائد بالشجاعة والجود وسرعة البطش وإغاثة الملهوف والبسالة، ويُمدح القاضي بالعقل، والعدل، والعفة، ورد الحقوق ورفع الظلم وانبساط الوجه ولين الجانب والورع وإقامة الحدود، ويُمدح أصحاب الحرف بما يتناسب معهم من صفات معنوية من أمانة وصدق وحسن التعامل وجودة العمل والتفاني فيه وغير ذلك[1]، ولا يمدح الرجل بآبائه إلا على سبيل التبعية، فبعد مدحه بنفسه، يمدح بشرف نسبته لهم وشرف كونه واحدًا منهم.

وإذا تأملنا الفئات التي مدحها شاعرنا حيص بيص نجدها تدور حول أعالي القوم من سلاطين وخلفاء وأمراء وقضاة وغيرهم من سادات القوم؛ لذا فإن أكثر الصفات التي مدحهم بها هي الشجاعة والكرم التي لابد أن يتصف بها كل نبيل له مكانة بين قومه بالإضافة إلى العدل والمروءة والشهامة وحسن الهيئة والرفعة في قومه...وغيرها من الصفات الجيدة، وينفي عنهم ما كان ضدها.

المبحث الأول: الشجاعة

تعد الشجاعة من أبرز الصفات التي مُدِح بها الممدوحون وأكثر مَن يُمدَح بها الخلفاء والقواد والوزراء؛ وذلك لكثرة حمايتهم للرعية وإغاثتهم للملهوف، وهزيمتهم للأعداء، ورفعهم للظلم وصبرهم على الملمات، ومثال ذلك قول حيص بيص في مدح السلطان المعظم غياث الدين والدنيا محمود بن محمد بن ملكشاة (بحر البسيط)[2]:

تحيد سمر العوالي وهو مقتحمٌ وتستطير الرواسي وهو صِنديدُ[3]

يزيدهُ جذلاً صوت الصريخ ضحىً كأنما الحربُ في ألحاظِهِ رُودُ[4]

ألْهوب حرب له يوم الوغى شعلٌ ويوم سلمٍ شهيُّ الطَّعم مورودُ[1]

---

(1) نفسه: صـ94 وما بعدها.

(2) حيص بيص: ديوانه، جـ1، صـ156.

(3) سمر العوالي: الرماح ، تستطير: تفزع ، صنديد: السيد الشجاع.

(4) جذلا: المرح ، الرود: الشابة الحسناء.

يتحدث الشاعر في الأبيات السابقة عن شجاعة السلطان محمد بن ملك شاه في أرض المعركة، فرغم تطاير السهام واحتدام المعركة حتى أن الجبال بصلابتها ورسوخها تفزع من هولها فإنه يهجم ويقتحم المعركة بشجاعته، ويشعل حماسته صوت المستغيثين به فيتحول لقاء الأعداء كأنه لقاء شابة حسناء. ويقول في القصيدة نفسها:

يصمي بطير من الأعواد هافيةٍ أوكارهُنَّ المجالي واللّغاديدُ[2]

من كل أهيف ممشوقٍ يظاهره مؤلَّلٌ من حديد الهند مجرود[3]

ألفى به النسرُ عهداً من قوادمه يميرُهُ ورواقُ الحرب ممدودُ[4]

كأن مرماهُ مغناطيس أنصُله ففيه قبل انتحاءِ القصد تسديدُ[5]

لو أبصرت عينُ داوودٍ منافذه لما تحدى بنسج السَّرْدِ داوودُ[6]

من قلب محنيَّةٍ ملويَّةٍ قُذُفٍ سيَّان في قصدها قربٌ وتبعيدُ

ويتحدث في هذه الأبيات عن دقة رميه للسهام وإصابته رءوس أعدائه بدقة شديدة، فيصطاد أعداءه كما يصطاد الطيور في رحلة صيده بسهام رقيقة سريعة فيصيبها السهم في مقدمة رأسها، ويساعده على ذلك حدة سهمه المصنوع من حديد الهند، ومن دقة إصابته للهدف شبه السهم بالمغناطيس الذي ينجذب إلى الأعداء فيصيب الهدف بدقة حتى ليعجز درع داوود عليه السلام من حمايتهم من السهام.

ويتابع حديثه عن سهمه وقوسه، فيقول:

لها رنين إذا ما أنْبضتْ زجِلٌ كما أرنَّ أبيُّ النفسِ مجهود[7]

كأنها حاجب المذعور مُرْشقةً ما فيه للخوف تدريجٌ وتجعيدُ[8]

وتنثني حين تُلفي غيرُ موترةٍ كأنها حاجبٌ بالغَيظ معقودُ

---

(1) ألهوب حرب: موقد اللهب.

(2) يصمي: يصيب مقتلًا، بطير من الأعواد: يقصد السهام، أوكارهن: أي موضع إصابتهن، المجالي: مقادم الرأس.

(3) الأهيف الممشوق: يقصد به السهم، بظاهره: يعاونه، مؤلل: محدد. مجرود: مبرود.

(4) القوادم: الريش في مقدمة الجناح، يميره: أي يأتي له بالطعام، رواق الحرب: أي غبارها.

(5) أنصله: أي النصل الحديدة في مقدمة السهم، انتحاء القصد: أي ميلان السهم نحو الهدف.

(6) منافذه: موضع نفوذ السهم، السرد: حلق الدرع.

(7) أنبض القوس: جذب وترها ليرن، المجهود: المتعوب.

(8) التدريج والتجعيد: التثني والانقباض، يقصد أن قوسه عند الرمي تشبه حاجب الخائف.

لــه ألَـفٌ قـويـم الـقـد مـعـتـدلٌ مثقّفٌ من عروق الـخط أمْـلـودُ[1]

سـكـرانُ مـن عسلانٍ في معـاطـفه لـكنه عند طعن النَّـحـر عِـرْبيـدُ[2]

ويكمل حديثه عن سهام ممدوحه فيقول: إن لها رنينًا مميزًا كلما جذب وترها لتنطلق، أما الوتر فيشبه في التوائه وانعقاده حاجب الرجل الغاضب. ويصف سنان الرمح قبل الطعن فتشبه كوكب زحل في زرقته أما بعد القتال فيشبه المريخ في حمرته.

ويختم أبيات الشجاعة متحدثًا عن سيف ممدوحه، بقوله:

وصـارمٌ تـسـبـقُ التقـحـيـم قـتـلـتـهُ يـوم الـكـريـهـةِ فـالأيـمـاءُ تـقّـديـد[3]

يـغـتـالُ مـن لـمـعـانٍ لـحظ نـاظِـرهِ فـمـا لـمُـقْـلـة راءٍ فـيـه تـرديـد

كـأنـه جـدولٌ والـبـحـر قـابـضـهُ إذا انتضـتـاه شديد الـبـأس مـجـدودُ

على أقبَّ رحيب الصدر ذي خصل فيـه عـلى الريح تـبـريـزٌ وتـجـويد[4]

نـوَّامُ مـربـطه يـقـظـانُ مـعـركـهِ سـهـلُ العنـانِ وفـي التـعداء تشديد

مصغ إلى هاجس من سرِّ فـارسـهِ كـأنَّـه بضـمـير الركـض مجـلـودُ[5]

فـي جحفـل كأتيِّ الطود ذي لجبٍ لـه بمـخـترق البـيـداء تـنـضـيـد[6]

كأنما القاع طِرْس وهـو أسطـرُه والبيـضُ والسـمـرُ أعـرابٌ وتـأكيد

ويأتي دور مدحه لسيف ممدوحه فهو يسبق سيده في اقتحام المعارك فيمزق جسد أعدائه، ويختم حديثه عن سيفه بوصفه بالدول الذي يستمد قوته وشجاعته من بحره الكبير الذي يقبض عليه. وفي النهاية يصف فرسه فهو ضامر البطن، منسدل الشعر، متأهب في المعارك، سريع كالرياح، يتبع فارسه دون حاجة لتوجيه، فيأتي إلى رأس الجيش مسرعًا كالسيل الجارف من أعلى الجبل، ليقتحم الصحراء الواسعة فيمحو ما بها من أعداء.

(1) الألف : الرمح الصلب، المثقف من الرمح: أي المقوم، الأملود: الناعم.
(2) عسل الرمح: أي اهتز واضطرب، العربيد: أي السفية.
(3) أي إن هذا السيف يسبق صاحبه في القتال قبل أن يقتحم صفوف الأعداء، ويقصد هنا هيبة صاحب السيف.
(4) الأقب من الخيل: ضامر البطن، الخصل: أي الشعر المتدلي من معارف الخيل.
(5) يتحدث عن الفرس فهو على علم بمراد فارسه، فهو يسير بدون توجيه.
(6) أتي الطود: كالسيل الجارف، اللجب: الضوضاء والجلبة.

فكل هذا الوصف ما هو إلا كناية عن شجاعة ممدوحه؛ فلا يمكن وصف الرمح والقوس والسيف والفرس بالشجاعة، دون أن يكون الممدوح شجاعًا.

ومما قاله حيص بيص في الشجاعة مدحه ملك العرب دبيس بن صدقة عند عودته إلى الحلة، قائلًا (بحر الطويل)[1]:

تـقـابـل مـنـه والـحـوادث جـمَّـة ... إذا أخـرس الخطب الألد المـشيَّعا[2]

جـنـانـاً كعادي الجبـال ومِـقْولاً ... جريـاً وقلباً في الخـفـيَّات أصْمـعا[3]

وذا مِـــرَّةٍ لا تـستـفــز أنـاتـــهُ ... مـجـيـبـاً إذا داعي الـمكارم أسمـعا[4]

إذا ذل بأس الجيش عن قتل ناكث ... أتــاح له مـن صائب الرأي مصرعـا

تغيب شموس الصبح من نقع خيله ... وتغـدو نجـوم الليل بالـصبـح طُـلَّعـا

تخال سقـاط السمر والـدم إن غـزا ... غشـاءً وسيـلاً مـن يَـفـاعٍ تـدفَّـعـا[5]

وذي رهـجٍ جم الغماغم مجلـبٍ ... غدا غرضه من واسع الخرق أوسعا[6]

طويل القنا تخشى النجومُ طعانه ... بـأمـثـالها ما لـم تـر السـمـر شُـرَّعا

إذا استشبـح الظمآن فـارط خـيله ... يظـن الغديـر السـابـري المـرَفَّـعـا[7]

خلا عِدُّه عن تـابع غيـر مـحربٍ ... فلست تـرى إلا الـكميَّ المُـقـنَّـعا[8]

تُـخيـرت الأبطال والخـيلُ عنده ... فلم تـر إلا سـابـقاً وسَـمَـيْـدعـا[9]

وطالـت بـه عـنـد التجاوب ألسُنٌ ... فأحمدت منه ذا صهيلٍ ومِصْقعـا[10]

كـأن علـى أقـطـاره مـن وجـيـفـهِ ... غضىً نبَّهته حرجفٌ فـتـجـعـجـعـا[11]

---

(1) حيص بيص: ديوانه، جـ1، صـ 166.

(2) الألد: الخصم العنيد، المشيع: الشجاع.

(3) العادي من الجبال: القديم الراسخ الثابت، القلب الأصمعي: أي الذكي.

(4) المِرَّة: أي القوة، أناته: حلمه.

(5) سقاط السمر: ما تكسر من الرماح وتساقط، اليفاع: ما ارتفع من الأرض.

(6) الرهج: الغبار ويقصد الجيش، الغماغم: أصوات الأبطال، الجلبة: صوت الضجيج. الخرق: الفقر.

(7) استشبح: تراءى له شبح، فارط الخيل: المتقدم منها، السابري: درع دقيقة النسج.

(8) العد: الماء الذي لا ينضب، الكمي: الشجاع.

(9) السميدع: الأسد.

(10) الخطيب المسقع: أي البليغ.

(11) أقطار الجيش: نواحيه وجوانبه، الوجيف: ضرب من السير السريع للإبل والخيل، الغضي: نوع من شجر.

طردت رخي البال من سورة الردى كما جفل المُصطاد سِربًا مذعذعا[1]

فغاردته من عادة البذل للقر يقوتُ عُقاباً كاسراً وسَمعمعا[2]

وكنت من استمطرت بيضَك والقنا دماءَ الأعادي في الوغى هطلاً معا

فقد مدح الشاعر ملك العرب دبيس بن صدقة في الأبيات السابقة متحدثًا عن قوته وشجاعته، واستنفاره إذا دعا داعي الحرب، ثم يخبر عن جيشه الذي يخفي ضوء الشمس من كثرة الغبار الذي يثيره، ومن كثرة أسنة الرماح المتكسرة من شدة الحرب تحسب أنها سيل مندفع من مكان عالٍ، ويتابع وصف المعركة متحدثًا عن شجاعة ممدوحه فيها، والهزيمة الساحقة التي أهلكت أعداءه، ثم يؤكد أن ممدوحه دائمًا ما يسرع ليتصدر في أصعب المواقف ويواجه عدوه سواء كان مرتديًا درعه أم لا، وفي هذا دليل على بأسه وشجاعته.

ويستمر حيص بيص في مدح ممدوحيه بالشجاعة، فيقول مادحًا السلطان غياث الدين والدنيا مسعود بن محمد بن ملكشاه (بحر الخفيف)[3]:

نِعْمَ من لَثَمتْهُ هَبْوةَ حرب وجلاهُ تحت السَنَوَّرِ طردُ[4]

وإذا ملَّ سيفهُ الغِمْدَ أضْحى وله مفرقُ المُتوَّج غِمْدُ

دارهُ حوْمة الوغى من عَوادٍ وحشاياه عُودُ سَرجٍ ولِبْدُ[5]

في لقاءِ الحروب ليثَ عَرينٍ نال منه الطَّوى وفي الحلم أحْدُ[6]

مُتلفٌ ما احتواهُ جُوداً وبذْلاً يُهدمُ المالُ حيث يُبْنى المجْدُ

مالُهُ بعدَ حمْدِه ومَعالي هِ حسامٌ ماضٍ وطِرْفٌ علنْدُ[7]

يتحدث الشاعر في الأبيات السابقة عن شجاعة السلطان مسعود فهو موجود في كل حرب، فإذا دخل سيفه في غمده ملَّ سيفه حتى يخرجه للقتال مجددًا، فيدور في ساحة الحرب مع خيله الذي وضع عليه سرجه ولجامه، وهو في أرض المعركة يشبة الأسد في عرينه إذا نال منه الجوع

(1) سورة الردى: حدته، جفل: نفر، المذعذع: أي المفرق.
(2) يقوت: يطعم، السمعمع: الخفيف السريع ويقصد الذئب.
(3) حيص بيص: ديوانه، جـ1، صـ 184.
(4) هبوب الحرب: غبرتها، السنور: يطلق على كل سلاح من حديد.
(5) العواد: الخيل، الحشايا: الفرش المحشو، اللبد: صوف يوضع على ظهر الفرس تحت السراج.
(6) الطوى: الجوع.
(7) العلند: الجواد الصلب الشديد.

فيهجم على أعدائه دون خوف من الموت أو الهزيمة، ومع هذا فهو كريم جواد يبذل المال والعطايا.

وأيضًا من أبيات الشجاعة التي مدح بها حيص بيص السلطان غياث الدين والدنيا مسعود بن ملكشاه، قوله (بحر الوافر)[1]:

غيـاثَ الديـن والدُّنيـا بِسعْيٍ يحـوزُ الحمـدَ أو يحوي الثَّوابـا[2]

إذا ما أوسعَ الاسلامَ نَصْـراً غدا يحمي من الخطْبِ الصِّحابا[3]

فتى السُّمْرِ الذوابلِ والمَذاكي إذا ما الشمسُ أغْدفتِ النِّقـابـا[4]

تَعافُ جيـادُه غُـدْرَ الفيافـي فيـوردها الجمـاجمَ والـرِّقـابـا[5]

وتكـرهُ بيضُـه الأجْفـانَ عِزّاً فـيـجـعلُ كلَّ ذي تـاجٍ قِـرابـا[6]

ويختارُ الصَّـوارمَ والـعَوالي فـيـجـعلُ كلَّ ذي تـاجٍ قِـرابـا[7]

إذا مـا رأسُ مـمـلـكـةٍ مُـطـاعٌ عـصى سلـطانـه أضحى ذُنابى[8]

يُبيحُ قصورَه صُـمَّ الحَـوامـي فـتجْـعلُ كـلَّ شـامـخـةٍ تُـرابـا[9]

يمدح السلطان مسعود بنصرته للإسلام، ونصرته أيضًا لأصحابه فرمحه حاد دقيق، وسيفه يكره أن يكون في غمده، ويفضل أن يكون من السيوف والرماح في أرض المعركة، أما خيله فيترفع عن عيون المياه في الصحراء مفضلًا الدماء والجماجم في الحرب، هذا لسلطان مطاع في أي مملكة يرأسها، وإذا تمرد عليه أحد تحول إلى ذئب مفترس.

ومما قاله في مدح الأمير حسام الدين أبي الفوارس بن المهلهل (بحر الطويل)[10]:

يتيه الخميس المجر بابـن مُهلهـلٍ ونفـس حسـام الدين من بأسه مجْر[11]

وتعبس جُرْدُ الخيل تحت عجاجه فيـطـربُهـا منـهُ السعـادةُ والنَّـصرُ[1]

---

(1) حيص بيص: ديوانه، جـ2، صـ136.
(2) السعي: العمل، الثواب: الجزاء في الدار الأخرة.
(3) الخطب: الأمر الجلل.
(4) الذوابل: صفة للرماح الدقيقة، المذاكي: الخيل، أغدفت النقابا: أسدلته.
(5) تعاف: تترك، الغدر: جمع الغدير وهو القطعة من الماء، الفيافي: الفلوات.
(6) البيض: السيوف، الأجفان: جمع جفن وهو غمد السيف.
(7) البيض: السيوف. الأجفان: جمع جفن وهو غمد السيف.
(8) الذنابي: الذئب والذيل والتابع.
(9) يبيح الشيء: يجيز تملكه أو التصرف به، الحوامي: حوافر الخيل.
(10) حيص بيص: ديوانه، جـ2،صـ24.
(11) الخميس: الجيش، المجر: الجيش العظيم.

فتىً علّم السُمر الذوابل والظبى بسالتَـهُ حتى شكى الهامُ والنَّحْر[2]

إذا أوقد النارين بالصبح والدجى تباشر بالخِصب المَعاديمُ والنَّسر[3]

تركتُ عليه شُرَّداً من مدائحي تَسرُّ المعالي حين يُنشَدُها بدْرُ[4]

يتفاخر، فالجيش العظيم يتفاخر بالأمير حسام الدين بن المهلهل لقوته وبأسه، وتسعد الخيل بالنصر رغم اشتداد المعركة وكثرة غبارها، فقد علَّم الرماح الشجاعة حتى اشتكت الرءوس والنحور، وهذا دليل على شجاعته وشدة قتاله لهم.

ويقول أيضًا في مدح الأمير أبي الفوارس بن المهلهل (بحر الطويل)[5]:

وبالكوفةِ الفيحاء فارسُ بُهْمَةٍ يكرُّ إذا ما الخيلُ حادتْ وولّت[6]

تُخبِّرُ ضيفانُ الشتاءِ بجودهِ إذا الجرن من عصف الشمال اضمحلَّت[7]

أبو الفارس الحامي حقيقةَ حَرْبه إذا ما المنايا أدركتْ وأظلَّتِ

تُبكِّي نجيعاً من دمِ العامِ بيضهُ وقد ضحكت عُجباً به حين سُلَّتِ

فالشاعر هنا يتحدث عن فارس شجاع يهجم إذا تراجعت الخيل وفرت، هذا الفارس يقف شامخًا في أرض المعرك مهما اشتد زمامها. كما أشار إلى كرمه فيعرفه الضيفان بجوده في أيام الشتاء القارصة البرودة عندما يعدم الطعام.

ومما قاله في شجاعة الخليفة المستضيء بأمر الله (بحر الكامل)[8]:

---

(1) الجرد: خيل لا رجالة فيها، وقيل: الخيل التي قصر شعر جلدها، وهي صفة محمود في الخيل.

(2) شكى يشكو: تظلّم، الهام: أعلى الرأس.

(3) يريد بالنارين: نار الحرب ونار القرى، المعاديم: جمع معدام، من صيغ المبالغة للمعدم، وهو الفقير، النسر: أكبر الطيور الجوارح.

(4) الشرَّد: جمع الشاردة، أي القصيدة التي سار ذكرها في البلاد، بدر: اسم الممدوح.

(5) حيص بيص: ديوانه، جـ2، صـ22.

(6) البهمة: الشجاع الذي يستبهم على أقرانه مأتاه.

(7) الجُرْن: البيدر للحنطة ويجمع على جرن.

(8) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ302.

فإذا طَغى الأعداء كَفَّ جيوشَهُ مــع بأسهــمْ وغَزا بجيشِ تَوكلِ[1]

فالنَّصر يُحقــر كــلَّ طَعْنٍ مُنْفذٍ والسَّعد يصْغرُ كلَّ ضربٍ أرْعل[2]

نــام الرَّعيَّــةُ والإمــامُ مُسَــهَّدٌ جَمُّ الرَّويَّةِ في صلاحِ المُهْمَــل[3]

فالشاعر يصف شجاعة خليفة المسلمين المستضيء بأمر الله، فيحكي أن الأعداء إذا ما طغوا وتجبروا وعاثوا في الأرض فسادًا، سار إليهم الخليفة بجيشه المهيب متوكلًا على الله تعالى، فيهزمهم شر هزيمة، لتنام الرعية في أمان، بينما هو ساهر على راحتهم وأمانهم، مصلحا لأمورهم وأحوالهم.

ويمدح الوزير العادل شرف الدين أبا جعفر بن البلدي (مجزوء الكامل)[4]:

يُبتْــدي حِمــاهُ ونَــصْــرَهُ ولــجــودِهِ مُــخْــفٍ كَــتــومُ[5]

وتخــافُ غَــرْبَ حُســامِــهِ حُمْــس الفــوارس والقُــرومُ[6]

تَشْقى بــهِ الكُومُ العِشــارُ وحَــظُّ عــافــيــهِ النَّــعــيــمُ[7]

قــاسٍ إذا اشْتَجَرَ الرِّمــاحُ وعنــتــد نُصْــرَتِــهِ رَحيــمُ

تــاجُ المُــلــوكِ وأحْــمَــدُ الخَــيْراتِ والماضي العَــزومُ[8]

يبين الشاعر في الأبيات السابقة شجاعة ممدوحه وكرمه فشجاعته بادية واضحة يهابها الفرسان الشجعان والأبطال العظام فهو قاس شديد في الحق، ومع ذلك فهو لين رحيم بالضعفاء يطعمهم ويقضي حاجاتهم فشجاعته ظاهرة، ولينه وكرمه في الخفاء.

ومما مدح به الخليفة المستضيء بأمر الله، قوله (بحر الطويل)[9]:

---

(1) طغى: ارتفع وأسرف في المعاصي والظلم، التوكل : الاتكال على الله عز وجل.

(2) يحقر الشيء: يستصغره ويصير حقيرا، السعد: اليمن. الضر الأرعل: الذي يقطع اللحم فيدليه.

(3) مسهد: سهران، الروية: التفكر في الأمور، المهمل: المتروك.

(4) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ177.

(5) حماه: حمايته لمن يحتمي به، الجود: الندى، كتوم: ستور.

(6) غرب السيف: حده، الحمس، جمع الأحمس: وهوالصلب والشجاع.

(7) الكوم، جمع الكوماء: وهو الناقة الضخمة السنام، العشار: جمع العشراء: وهى الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر، الافي: طالب الحاجات.

(8) أحمد الخيرات: أفضلها، الماضي: القاطع والنافذ، العزوم: الذي يستمر على عزمه إلى أن يبلغ مرماه.

(9) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ325.

كـأنَّ سِباع الطَّيـر تَتْلو خميسَـهُ عُفـاةُ كريـمٍ مـا تَـإِبُّ نَـوافِلُـهْ[1]

فقد وثقت من عادة الضَّرْب بالغنى إذا عَمَـدَتْ للنَّـاكثيـن جَحـافِلُهْ[2]

كمـا وثِقتْ مُعْـطُ العواسـل عندهُ بأرزاقها ما اهتزَّ للطَّعْنِ عاسلُهْ[3]

فالشاعر هنا يمدح الخليفة المستضيء بالشجاعة، فالطيور الجارحة تتبعه وتسير خلفه؛ لتغنم بوليمة يعدّها الخليفة من أجساد أعدائه الذين خانوا العهد والميثاق، فيوسعهم ضربًا وطعنًا، كما تأخذ الذئاب والسباع نصيبها من الوليمة التي أعدّت بأسنة الرماح والسيوف.

ويمدح كذلك الأمير حسام الدين بدر بن مهلهل الجواني (بحر الطويل)[4]:

وتحت العَوالي والوجوهُ عوابسٌ طليقُ المُحيْا ضاربٌ في المَفارِقِ[5]

دعوْهُ حُسامَ الدينِ وهو حُسامـهُ القَطـوعُ إذا ولَّـتْ حُماةُ الحقائقِ[6]

لبيـقٌ بتصْريـف الأعِـنَّةِ والقَنـا إذا جَنَّ ليـلُ المأزقِ المُـتَضايقِ[7]

يجُرُّ الخميسَ المجْر وهو بنفسه خميسُ وغىً جمُّ الظُّبى والسَّوابقِ[8]

أبو الفارس الكَرَّارِ لكـن أناتُـهُ تعلَّمَ منـهـا كـلُّ أوْرَقَ شـاهِـقِ[9]

فشاعرنا يمدحه بالشجاعة، فهو لا يهاب شيئًا؛ حتى إنه في أرض المعركة وبين ضربات الرماح والسيف ترى وجهه هادئًا متفتحة أساريره فلا يهاب شيئًا في الوقت الذي يتسلل الخوف في قلوب الشجعان، فلديه خبرة ودراية في التعامل مع لجام الدابة وهو ممسك برمحه. كما أنه يقود الجيش الجرار المليء بالخيل والسيوف والفرسان.

---

(1) سبع الطير: الجوارح منها، تتلو: تتبع، الخميس: الجيش، العفاة: طلاب الحاجات. ما تغب: ما تنقطع، النوافل: العطايا.

(2) عمدت: قصدت،الناكثون: الذين نكثوا في البيعة، أي نقضوها، الجحافل: الجيوش.

(3) معط العواسل: أي الذئاب، العاسل: الرمح.

(4) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ346.

(5) العوالي: الرماح، طليق المحيا: متفتح أسارير الوجه، المفارق، جمع المفرق: وهو وسط الرأس.

(6) حماة الحقائق: الذين يحمون ما لزمهم الدفاع عنه.

(7) اللبيق: الحاذق، الأعنة، جمع العنان: وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة، جن الليل: أظلم، الأزق: المضيق وموضع الحرب.

(8) يجر الخميس: يقود الجيش، المجر: الجيش الكبير، جم الظبي والسوابق: أي كثير السيوف والخيل.

(9) الأناة: الحلم والصبر، الأورق: الجبل.

المبحث الثاني :

الجود والكرم :

الكرم من القيم الإنسانية ومكارم الأخلاق التي انتشرت وذاعت في تاريخ العرب القديم، فكانوا يعمدون إلى المبالغة في مدح الكريم وذم البخيل، مما ساعد على بقاء هذه القيمة في المجتمع العربي، فالكرم عادة السادات وشيمة الأحرار، فجعلوها دليل الرفعة والفخار.

لذا فإن قرى الضيف وإعانة المحتاج ونصرة المظلوم من أهم القيم التي انتشرت بين العرب، ومن أشهر العرب الذين عرفوا بالجود والكرم "حاتم الطائي" حتى صار مضرب المثل، واستمرت هذه القيمة كقيمة إنسانية بحتة حتى أتى الإسلام مرسخًا لها ومؤكدًا عليها، داعيًا إلى بذل المال لوجه الله وابتغاء مرضاته، كما نهى عن البخل والشح، قال تعالى {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[1]

ولمَّا كانت صفة الكرم من أكرم الصفات وأنبلها كان من الضروري مدح الممدوحين بها، خاصة مما كانت لهم منزلة عالية كالسلاطين والخلفاء والأمراء وغيرهم ممن يرجى عطاؤهم، وقد مدح حيص بيص ممدوحيه بهذه الصفة وأكثر فيها، ومن ذلك مدحه للسلطان المعظم غياث الدين والدنيا السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (بحر البسيط)[2]:

قومٌ أناملهم سحبٌ وأعصرهم خصب وعافيهُم في الجدب مودود[3]

تُسطْرب العيس من ذكرى محامدهم فللحداةِ بهم رجْعٌ وتغريدُ[4]

المطعمون وأرض الحي مُكْديةٌ والمقدمون إذا فرَّ الرعاديدُ[5]

فحيص بيص يمدح السلطان محمود بالكرم فيشبه أنامله بالسحب دليل على كثرة جوده، فطالب الحاجة وقت الشدة مجاب فيما يطلب، فيطعمون الناس في وقت الجدب، ويتقدمون الناس إن جلَّ الخطب في الوقت الذي يفر فيه الجبناء لفداحة الأمر.

ويمدح أيضًا ملك العرب دبيس بن صدقة، فيقول (بحرالطويل)[6]:

---

(1) سورة آل عمران: 133:134.

(2) حيص بيص: ديوانه، جـ1، صـ156.

(3) العافي: طالب الحاجة، أعصرهم: أي مطرهم.

(4) العيس: الإبل البيضاء الذي يخالط بياضها صفرة، الحداة: الذي يسير الأبل.

(5) الأرض المكدية: التي أبطل نباتها، الرعاديد: جمع رعديد وهو الجبان.

(6) حيص بيص: ديوانه، جـ1، صـ166.

وما الأخضر الطامي يعب عُبابهُ بأكرم من كفيك في الجدب منجعا[1]

ولا أنُف من روضة ذات بهجةٍ سقتها الصَّبا كأساً من الغيث مترعا[2]

أقام بها الشرب الكرام عشيَّةً وقد هجم الليلُ البهيمُ فأمتعا[3]

إذا أمسك الغيثُ المُلثُّ بأرضه سقوها عن الأيدي عُقاراً مشعشعا[4]

في الأبيات السابقة يمدح الشاعر ممدوحه واصفًا إياه بالكرم فهو أكثر جودًا من البحر عندما يحل الجدب، فإذا أمسك الغيث عن المطر سقى الممدوح الأرض بالخمر المشعشع.

ويقول في قصيدة أخرى مادحًا الصاحب بهاء الدين بن عضد الدين بالجود والشجاعة (بحر الطويل)[5]:

تخاف سلطاك البيض وهي صوارمٌ ويحسد جدواكَ الغمامُ مع القطر[6]

فإنك إما صرَّح الجدبُ والرَّدى هزمتهما بالجود منكَ وبالنَّصرِ

إذا ما بهاءُ الدين شدَّ عليهما غدا العزُّ والنَّعماء بالخوف والفقر

فأضحى طريد الأرض ذا قعسريةٍ من العز والمُقوي الضَّريكُ أخا دَثْرِ[7]

مدح حيص بيص الصاحب بهاء الدين بشجاعته وكرمه، فالسيوف القاطعة تخاف بطشه، ويحسده الغمام لجوده وكرمه، فعند وقوع الجدب والحرب يهزمهما بالجود والشجاعة، فلا خوف ولا فقر بحضرة بهاء الدين، فيصبح الطريد الخائف آمنًا في داره والفقير المعدم ذا عزّ ومال.

ويمدح كذلك حسام الدين أبا الفوارس بن المهلهل (بحر الطويل)[8]:

وبالكوفةِ الفيحاء فارسُ بُهْمَةٍ يكرُّ اذا ما الخيلُ حادتْ وولّت[9]

تُخبِّرُ ضيفانُ الشتاءِ بجودهِ إذا الجرن من عصف الشمال اضمحلَّت[10]

---

(1) الأخضر الطامي: أي البحر، العباب: الموج، الجدب: المحل، المنجع: موضع الخصب.

(2) روضة أنف: أي لم يرعها أحد، الصبا: ريح تهب من الشرق.

(3) الشرب(بالفتح) جمع شارب، البهيم: الأسود.

(4) الملث: المطر. الدائم. العقار المشعشع: الخمرة الممزوجة بالماء.

(5) حيص بيص: ديوانه، جـ2، صـ23.

(6) البيض: السيوف.

(7) العزة القعسرية: القديمة والضخمة، المقوي: الجائع، الضريك: الفقير السيئ الحال. الدثر: المال الكثير.

(8) حيص بيص: ديوانه، جـ2، صـ22.

(9) البهمة: الشجاع الذي يستبهم على أقرانه مأتاه.

(10) الجرن(بضم الميم وسكون الراء): البيدر للحنطة.

ويقول أيضًا في القصيدة نفسها:

كأنَّ حسام الدين وسْميُّ ديمةٍ كأنَّ حسام الدين وسْميُّ ديمةٍ

ففي الأبيات السابقة شبه الشاعر ممدوحه بالسحابة الممطرة التي يأتي بعدها الربيع متفتحة أزهاره، وهذا الفارس النبيل يهجم في الحرب إذا فرت الخيل لخوفها، ويقري الضيفان إذا عمَّ الجدب والقحط بسب رياح الشمال.

ويقول في مدح بهاء الدين بن عضد الدين (بحر الطويل)[1]:

أبي الفضل قاري الضيف في كل أزمة وحامي حريم الجار أسلمهُ الصحبُ[2]

وموسعُ خِصْب المُسنتين بجوده وقد أخْلَفَتْهم عند أنوائها السُّحبُ[3]

يشيمون برق البِشْر من قسماته فيُغْقبهم منه التبوُّجُ والسّكْبُ[4]

إذا ضاقت الدُّنيا عليهم خصاصةً فنائلهُ رحْبٌ ومنزلهُ رحْبُ[5]

ثناؤهم حصنٌ منيعٌ لعِرْضهِ من الذَّمِّ لكن مالُهُ لهمُ نَهْبُ

فعاش بهاءُ الدين يُرْجى ويتقَّى يذاد به عن أرضنا الخطب والجدب[6]

ففي الأبيات السابقة يتحدث الشاعر عن كرم بهاء الدين فهو يقري الضيفان، ويحمي الجار إذا جلَّ الخطب، ويطعم الناس وقت القحط وانعدام المطر، فكلما ضاقت عليهم الدنيا أفاض عليهم بكرمه وعطاياه لذا فهم يحبونه ويثنون عليه، فذكرهم الطيب له بمثابة درع وحصن منيع يحميه من الذم ويُعلي منزلته.

ويمدح كذلك الصاحب عضد الدين بالكرم مشبهًا إياه بالسحاب الممطر، إشارة إلى كثرة عطائه، كما أشار إلى بأسه وشجاعته، قائلًا (بحر الوافر)[7]:

أقامَ الصَّاحبُ الوهَّابُ نوءاً من المعروفِ عارضُهُ مَطِيرُ[8]

فغادرَ كل هامدَةٍ عَزازٍ يميسُ بها ويهتَزُّ الغَميرُ[1]

---

(1) حيص بيص: ديوانه، جـ2، صـ37.

(2) القاري: الذي يقري الضيف أي يطعمه، الأزمة: الشدة والقحط.

(3) المسنتون: المجدبون، الأنواء: الأوقات التي تطلع فيها نجوم مظنَّة المطر.

(4) يشيمون: ينظرون، القسمات: ملامح الوجه أو محاسنه، تبوَّج البرق: لمع وانكشف.

(5) الخصاصة: الفقر، النائل الرحب: العطاء الواسع.

(6) يذاد: يدفع، الخطب : ما عظم من البلاء.

(7) حيص بيص: ديوانه، جـ2، صـ39.

(8) النوء: النجم الذي تمطر السماء خلال طلوعه، وقصد بذلك العطاء، العارض: السحاب المعترض في الأفق.

فمـاتَ المَحْلُ خوفاً من نَوالٍ بـــه يحْـيـا مِـن المـوْتِ الفقـيـرُ

بكَفٍّ أغرَّ تحْسُـدُه الغَـوادي ويرْهبُ بأسَهُ اللَّيثُ الهصـورُ[2]

ويمدح أيضًا الأمير شهاب الدين توبة بن شوق الشنيني (بحر الطويل)[3]:

يعيدُ الضحى ليلا دخان قدُورهِ ويـهــدي سَـنـا نيـرانِــه كـلَّ جـائـرِ[4]

وتمشي بمعبوط السديف إماؤهُ إلى الضيف مشي المقربات الصوادر[5]

إذا شبحٌ من جـوَّ أرضٍ بدا لهُ تـنــاذرت الـكـومُ العِـشــارُ بـعـاقـرِ[6]

فالشاعر في الأبيات السابقة يتحدث عن إقرائه للضيفان، فقد كان يشعل لهم النار ليهتدوا إليه، فإذا أتوا إليه عقر لهم الإبل السمينة الشهية وتأتي الإبل في سرعة كأنما تتسابق للحصول على الماء.

ويقول متحدثًا عن كرم الوزير الزينبي بن طراد، ويطلب منه العطايا والهبات التي تعينه وتغنيه (بحر الطويل)[7]:

بحيث الوزير الزّينبيِّ يَصوبُني غـمــامَـيْ عُـلاً مـن نِجدةٍ ومـارمِ[8]

فـأغْنى بـه مــن بـأسـهِ ونـوالــهِ إذا جـاد عـن بيض الظُّبي والغمائم[9]

كما يمدح الخليفة المستضيء بأمر الله (بحر الكامل)[10]:

دعْ عنك مركوم السْحاب ووذْقَه وابْـغِ النّدى عند الإمامِ المُفْضِل[11]

تجد الحَيـا هَلَـلاً وما استَمطرْتَه جَوْداً يصوبُكَ من سحاب الأنمل[1]

---

(1) الهامدة: الأرض التي لا نبات فيها، العزاز: الأرض الصلبة، الغمير: النبات الأخضر وقد غمره اليبس.

(2) الهصور: الكاسر.

(3) حيص بيص: ديوانه، جـ2، صـ88.

(4) الجائر: الحائد عن الطريق.

(5) المعبوط: لحم الذبيحة الذكية الثمينة، السديف: شحم السنام، المقربات: الإبل التي بينها وبين الماء ليلة فهي تسرع إليه، الصوادر إلى المكان: الصائرة إليه. الصوادر منه: الراجعة.

(6) الشبح: الشخص، الجو: ما انخفض من الأرض، تناذرت: أنذر بعضها بعضًا. الكوم: جمع أكوام وهو البعير الضخم السنام، العشار : جمعع عشراء وهي الناقة التي مضى على حملها عشرة أشهر.

(7) حيص بيص: ديوانه، جـ2، صـ248.

(8) يصوبني: يعطيني صوبًا من عطاياه، والصوب: المطر، النجدة: الإعانة.

(9) أغنى به: أكون به غنيا، الظبي: السيوف.

(10) حيص بيص: ديوانه، جـ2، صـ302.

(11) المركوم: الذي تراكم بعضه فوق بعض، الودق: المطر، ابغ: أطلب.

مُتبعِّقـاً يَـذَرُ الحُـزونَ قَـرارةً مُـتبعِّقـاً يَـذَرُ الحُـزونَ قَــرارةً
تُحْيـي البلادَ بـه بَنـانُ خليفَـةٍ تـذَرُ الهـواجـر كالـربيـعِ المُبْقِـلِ
خِـرْقٌ يُـعاجِل سائليه بـرِفْـده ويَجـودُ بالنُّـعْمى إذا لـم يُـسْـأَلِ[2]
فكـأنَّ ناديَـهُ ومجْمَـعَ مجْـدِهِ سَلْسـالُ وِرْدٍ بـالمَفـازَةِ مُـثْـعِـلِ[3]
يتـفـارطُ العافـونَ حُـبَّ ورودِهِ كتفــارُط الكُدْريِّ نحو المَنْـهَـلِ[4]
لـو جـادَ بالبحـر المُحيطِ لَظَنَّهُ مـنْ فـرْطِ همَّتِه ثَميلـةَ سحْبَـلِ[5]
أو ســامـهُ عـافـوهُ بُـلـغَـةَ مـائـهِ يــومَ التَّـصـافُـنِ صائفاً لم يَبْخَلِ[6]

فحيص بيص يتحدث في الأبيات السابقة عن كرم الخليفة المستضيء، فقد فاق كرمه السحاب الممطر، فكرمه يهطل بغزارة مثل غزارة المطر في هطوله على الأرض القاحلة، فتحيا الأرض بعد جدبها فكذا حال سائله الذي يبادره بالعطاء حتى قبل أن يسأل؛ لذا يتسابق طلاب الحاجات إليه رغبة في عطائه، فقد زاد البحر المحيط في كرمه.

ومما قاله في مدح السلطان مسعود معبرًا عن مدى ثقته في كرمه وعطاياه، وأن هناك حصنين يحتمي فيهما ويأمن بهما وهما: الإيمان بالله تعالى، وكرم السلطان مسعود، إذ يقول (بحر البسيط)[7]:

أمِنْـتُ فقـري لما قَلـتُ عـن ثِقَـةٍ أنْ لا جواد سوى السلطان مسعودِ[8]
كما أمِنْـتُ بقـولـي لا إلـه سـوى الرحمـنِ تعذيب نارٍ ذات أخْـدودِ[9]
حِصنــان فـي الدين والدنيا سكنتهما مُشيَّـدانِ مـن الغُفْـرانِ والجـودِ[10]

---

(1) الحيا: المطر، الهلل: أول المطر، تهلل السحاب: سال، الجود: المطر الغزير. يصوبك: ينصب عليك، الأنمل، جمع أنملة: وهو المفصل الأعلى من الإصبع وهو الذي فيه الظفر.

(2) البنان: أصابع الكف، واحدتها بنانة، الهواجر، جمع هاجرة: وهو نصف النهار في القيظ: خاصة، المبقل: الكثير البقل، وهو ما نبت بزرة لا في أرومة ثابتة.

(3) الخرق: السخي، الرفد: العطاء، النعمى: المال.

(4) السلسال: العذب الصافي، ورد مثعل: مزدحم.

(5) يتفارط: يتسابق، العافون: طلاب الحاجات، الكدرى: ضرب من القطا، المنهل: المورد.

(6) جاد: تكرم، الفرط: تجاوز الحد، الثميلة: البقية، السحبل: السقاء والدلو الضخم.

(7) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ34.

(8) عن ثقة: عن تثبت، الجواد: السخي.

(9) الأخدود: الحفرة المستطيلة في الأرض.

(10) يقصد بالحصنين: إيمانه بالله تعالى وكرم السلطان.

ويمدح أيضًا الوزير العادل شرف الدين أبا جعفر بن البلدي، فيقول (مجزوء الكامل)[1]:

بحْرُ الفَضائلِ والفَواضِلِ جُودُ لُجَّتِهِ عَميمُ[2]
يحْيا بهِ الفَدْمُ الجَهولُ ويُوسِرُ المُقْوي العَديمُ[3]
فصِلاتُهُ الوفْرُ الجَزيلُ وفي بني الجَهْلِ العُلُومُ[4]
فَيُقِرُّ بالتَّفْضيلِ خِرْقُ الحَيِّ والحَبْرُ الحكيمُ[5]
دَجْنٌ صَدوقُ الشَّيْمِ سَحَّاحٌ إذا خَوَتِ النُّجومُ[6]
يَسْقي البِلادَ فَنَبْتُهُ الأعْمارُ لا الثَّعْدُ الرَّهيمُ[7]
يُبْدي حِماهُ ونَصْرَهُ ولجودِهِ مُخْفٍ كَتومُ[8]

فالشاعرهنا يصف ممدوحه بالكرم، فشبهه بالبحر عظيم الموج فيطعم الجياع والضعفاء والمعدمين من الفقراء، وعطاياه كثيرة كماء البحر في كثرته، يعترف كل رعيته بفضله وكرمه وإحسانه إليهم، فهو كالسحاب يكرم كل من يمر عليه، فيغدق عليهم العطايا والهبات، فهو سبب بقائهم على قيد الحياة؛ لكرمه معهم في السنين العجاف، ومع كل هذا فهو لا يفعل ذلك رياءً، بل يسعى إلى إخفاء كرمه وجوده.

ويقول في مدحه أيضًا (بحر الطويل)[9]:

ضوعُ بأرْجاءِ البلادِ كأنهُ مَجالُ غوانٍ أثْقَلَتْها عُطورُها[1]

---

(1) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ177.
(2) الفواضل: النعم الجسيمة، الجود: الندى، اللجة: معظم الماء، وخصها بعضهم بماء البحر، العميم: الكثير.
(3) الفدم: العيي عن الكلام مع قلة فهم وفطنة، يوسر: يسري، المقوي: الجائع، العديم: الفقير.
(4) الصلات (بالكسر): العطايا والجوائز، الوافر: الغني، الجزيل: الكثير.
(5) يقر: يعترف، الخرق (بالكسر): السخي وكريم الأخلاق، الحي: محلة القوم والبطن من بطون العرب، الحبر: العالم.
(6) الدجن: السحاب، الشيم: من شام السحاب أو البرق الذي أوشك على المطر. سحاح: كثير الانصباب، خوت النجوم: بخلت بالمطر، وكانت العرب تضيف المطر والرياح إليها.
(7) الأعمار، جمع العمر: يقصد أن ممدوحه يحيي الناس بعطاياه في السنين الغبر. الثعد: الغض من البقل، الرهم: المطر. والرهيم: الممطور.
(8) حماه: حمايته لمن يحتمي به، الجود: الندى، كتوم: ستور.
(9) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ191.

أو الطيِّبُ من ذكر الوزير وحمده إذا انديـاتُ الحيِّ عُدَّتْ صُدورها[2]

أبي جعفرٍ مِطْـعامُ كـلِّ عَشيَّـةٍ إذا النَّـارُ لم يرفـعْ سَناها مُنيرُها[3]

تكـونُ رياضاً أرضُه ذاتَ بـهجةٍ إذا السَّـنَةُ الشَّـهْبـاء جفَّ غميرها[4]

علـى أنهـا عنـد التَّنكّـرِ حَـرَّةٌ تشُجُّ الحوامي والخفاف صخورها[5]

تميـسُ تميمٌ في مَطـا كُلِّ سـابحٍ وقـد عَلِمـتْ أنَّ الـوزيـر عَشيرُها[6]

فالشاعر يصف كرم ممدوحه أبي جعفر، فهو يقري الضيفان، إذ يشعل النار في المساء حتى يهتدي إليها المسافرون فيأتون إليه، أما حديقته فهي ذات مروج وأشجار، حتى وإن كان العام قاحلاً، أما عند تبدل الحال فتصير جرداء قاحلة، وتنعم قبيلة تميم بهذا الكرم فتطرب له لأن مكرمها هو الوزير ابن البلدي.

ويختم القصيدة بقوله:

قِـراهُ بـديـعـاتُ النَّعيـمِ وَشيـكَة إذا ما الطَّواهي أرْجأتْها قَـدُورهـا[7]

ويُفْهِقُ أسماع الضيـوف بعُـذره إذا ما المَقاري نَشَّ عنها قَـديرُهـا[8]

وتُثْني عِتاقُ الطير صبحاً بفضله إذا جُثثُ الأبطال أضحتْ تـميرُهـا[9]

فـدامَ مُطـاعـاً ما تغنَّتْ حمامةٌ وما حانَ من شمس النهار ذُرورُها[10]

---

(1) يضوع: ينتشر، أرجاء البلاد: نواحيها، المجال: موضع الجولان وهو الذهاب والإياب، الغواني، جمع الغانية: المرأة الجميلة الغنية بحسنها عن الزينة.

(2) الطيب: العطر، الأنديات: المجالس، الحي: محلة القوم، والبطن من بطون العرب. الصدور جمع الصدر: رئيس القوم ومقدمهم.

(3) العشية: من صلاة المغرب إلى العتمة، سناها: ضياؤها. المنير: موقد النار.

(4) الرياض، جمع روضة: وهي العشب والماء، والحديقة ذات الشجر، البهجة: الحسن والنضارة، السنة الشهباء: المجدبة، الغمير: الماء الكثير والنبات الأخضر.

(5) التنكر: التغير من حال تسر إلى حال تسوء، الحرَّة (بالفتح): أرض ذات حجارة نخرة سوداء كأنها أُحرقت بالنار، تشج: تجرح، وتكسر، الحوامي: ميامن الحافر ومياسره، الخفاف، جمع خف: وهو للبعير كالحافر للفرس.

(6) تميس: تميل طربا، المطا: الظهر، السابح: السابق من الخيل، العشير: القبيلة والقريب الصديق.

(7) القرى: ما يقدم للضيف، النعيم: طيب العيش، البديعات، جمع البديعة: الجديدة المبتدعة، الوشيكة: السريعة، الطواهي، جمع طاهية: أي الطباخة. أرجأتها: أخرتها.

(8) يفهق السماع: يملؤها، المقاري: القدور والقصاع، نشَّ: نضب، القدير: المطبوخ.

(9) عتاق الطير: الجوانح منها، تميرها: تعطيها الميرة، وهي طعام يمتاره الإنسان.

(10) حان الأوان: حل الوقت أو قرب، ذرور الشمس: شروقها وطلوعها.

فهو يتفنن في إكرامه للضيفان ويبدع في هذا إذا تأخر الطاهون في إعداد الطعام، ويعتذر بأسف لضيفانه إذا ما نفدت القدور من الطعام وذلك لثرة ضيفانه، ولا يتوقف كرمه عند الإنسان فقط، فهو يطعم الطيور الجارحة بجثث الأبطال الذين يهزمهم، وفيه إشارة لشجاعته ويختم القصيدة بالدعاء له، أن يظل سيدًا مطاعًا في قومه ما دامت شمس النهار طالعة.

المبحث الثالث :

الحكمة وحسن التدبير ورفعة الشأن :

الحكمة من الصفات الواجب توافرها فيمن ولي أمر الناس، ليتمكن من جلب المصالح لهم ودفع الأذى عنهم، وعدم تعريضهم لما يؤدي لهلاكهم، لذا فقد تمتع الخلفاء والسلاطين والوزراء وغيرهم من علية القوم بالفطنة والذكاء وحسن تدبير الأمور، كما يلزم علو القدر ورفعة المنزل، ونفاذ الرأي، وقد تغنى الشعراء بهذه الصفات في ممدوحيهم فيقول حيص بيص في مدحه للسلطان المعظم محمود بن محمد بن ملكشاه (بحر البسيط)[1]:

من نور أبلج لا في عوده خَورٌ ... للعاجمين ولا في الرأي تفنيدُ[2]

صَدْقِ البديهة في تأميم مقصدِه ... وللرويَّةِ تصويبٌ وتصْعيدُ[3]

يصيب من غير تقدير ولا فكر ... كأنَّ آراءهُ في الأمر تأييدُ

تنام عنه الرعايا وهي وادعةٌ ... والنوم عن مقلة السلطان مطرودُ

فالشاعر يبين سداد رأي السلطان، فآراؤه لا يعتريها الضعف وتأتي آراؤه دقيقة دون عناء في التفكير، مما يجعلٍ شعبه يعيش في سلام وأمان. ويقول في مدح الصاحب بهاء الدين متحدثًا عن رفعته في قومه وسداد رأيه وكرمه وشجاعته ولين قلبه وإغاثته للملهوف (بحر الطويل)[4]:

فتىً ألْف العلياء وهي شوارِدٌ ... فأحرزَها بين المكاسبِ والنَّجْرِ[5]

فللسَّعي نشر كالخمائل في الدجى ... وكم تكلَّفتُه حملاً فلم أُطِقِ[6]

---

(1) حيص بيص: ديوانه، جـ1، صـ156.

(2) الأبلج: المشرق، الخور: الضعف، عجم العود: اختبر صلابته، الفند: العجز.

(3) البديهة: خلاف التروي والتفكير.

(4) حيص بيص: ديوانه، جـ2، صـ23.

(5) النَّجر: الأصل.

(6) الخمائل: جمع الخميلة، وهو الشجر الكثيف الملتف، منبلج الفجر: وقت إشراقه.

وعند أبي الفضل الجواد أخي الندى زوائـــدُ شـتـــى مـن خلائقهِ الزَّهْر

أنـــاةٌ وإقـــدامٌ ولِـيـــنٌ وشِـــدَّةٌ وعونٌ على الأيام في العسروالميسر

ويمدح الوزير الصاحب عضد الدين (بحر الطويل)[1]:

إذا ما انتدى فالشامخ الطودُ راسخٌ وفي العـزم مَضَّاءُ الغِرارين قاصل[2]

حوى عضد الدين العُلى عن وراثةٍ وسـعي فأمسى وهو في المجـد كامل

فـأدركَ مـسعى قـوْمه وهـو غـايـةٌ وزادَ بمـا لـم يـستـطـعـهُ الأوائـلُ

يطيب ويذكو من أحـاديثِ مـجـده ونـشـر معاليهِ الضُّحى والأصائـلُ[3]

ويهـتـزُّ لـلـمـعروفِ حـتى كـأنـهُ صـفـيحـةُ نـصلٍ أخلصتها الصَّياقل[4]

فشاعرنا يمدح الوزير عضد الدين بعلو مكانته، ورأيه السديد النافذ مشبهًا إياه بالسيف القاطع، فقد حاز كل الفضائل، فتطيب المجالس بذكر أمجاده، وتنتشر مناقبه ومآثره في كل مكان.

ويقول أيضًا في مدح ملك العرب دبيس بن صدقة (بحر الطويل)[5]:

بأطيب من ذكرى دبيس بن مزيد إذا ردد الـسـاري ثـنـاءً ورجَّـعـا

توالت عليه الفـادحـاتُ ولـم يحـدْ عن الصبر حتى أدرك المجد أجمعا

وما زال يـرخي للنـوى مـن قيـاده إلـى أن أفـاد الـحـي شمـلاً مُجمَّعا

ولـم لـم تـكـن لله فـيـه سـريـرةٌ لمـا راح مـن جـور الـرزايا ممنَّعا

ولا زال المـوت الـزؤام بـنـفسـه فكان بـقاءً مونـقَ العيش مُمرعا[6]

وقـد خـذل الأيـام رأيـاً وفطـنـةً كما خـذل الأبطـال حـربـاً وروعـا

أشار في الأبيات السابقة إلى كثرة فضائله ومعروفه الذي كان سببًا في نجاته من المهالك والرزايا، وقد ختم الأبيات مشيرًا إلى ذكائه وفطنته التي واجه بها مصائب الدهر مثلما واجه الأبطال في الحروب بشجاعته ودهائه.

ويمدح الأمير نجم الدين حسن بن الرومي (بحر البسيط)[7]:

---

(1) حيص بيص: ديوانه، صـ2، جـ35.
(2) الغراران: مثنى الغرار: وهو الحد، قاصل: قاطع.
(3) يذكو: يسطع ريحه، النشر: الرئحة الطيبة.
(4) الصفيحة: وجه كل شيء عريض والسيف العريض، النصل: السيف.
(5) حيص بيص: ديوانه، جـ1، صـ166.
(6) النوى: البعد، الحي: القبيلة، وهي بنو أسد.
(7) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ41.

مسدِّدُ الطعن حيث السُّمر حائدةٌ وصائبُ القول حيث الرأي مُرتجن[1]

غالي المعالي رخيصٌ عند هِمَّتهِ حيث التَّودُّدُ منه والنَّدى ثمَنُ[2]

مُسْتمسكٌ بحبالِ اللّه مُعْتصمٌ له المكارم حِصْنٌ والتُّقى جُنَنُ[3]

صافي الطَّويَّةِ ما في قلبه دَغَلٌ تشابه السِّرُّ في تقْواهُ والعَلَنُ[4]

في هذه الأبيات مدح الشاعر الأمير نجم الدين حسن بن الرومي ذاكرًا شجاعته، وسداد رأيه عندما يشتد الخطب ويحتدم الأمر، كما ذكر مكانته العالية وجوده وكرمه، وحسن خلقه وتمسكه بأوامر الله، صافي الضمير والنية فلا يحمل في قلبه غلًا ولا حقدًا على أحد.

ويقول أيضًا في مدح أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله متحدثًا عن خصاله (بحر الرمل)[5]:

مُحْمَدُ الأفْعالِ موفورُ النّهى سابغُ النّعْماء عُلْويُّ الشّيَمْ[6]

يلْمَعُ البِشْرُ على أعْطافِهِ لَمَعانَ البرْقِ في غُرِّ الدِّيَمْ

شامِخُ المَجْد مُنيفٌ قدْرُهُ راجِحُ الحَبْوَةِ طيَّاشُ القلَمْ[7]

باسِلٌ إنْ نَزلَ الخطبُ حَمى قائلٌ إنْ جادَلَ اللُّدَّ خَصَمْ[8]

نازِحٌ عن موْطِنِ العارِ لهُ مَوْطنُ العَلْياءِ والمَجْدِ أمَمْ[9]

فحيص بيص يثني على أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله، فعقله راجح، وأفعاله مصيبة، وأخلاقه كريمة، عالي المنزلة، مسدد الرأي شجاع عند احتدام الخطب، قوي الحُجة في الجدل، مترفع عن كل نقص قريب من كل فضل ورفعة.

ويقول كذلك في مدح الوزير شرف الدين بن طراد الزينبي (بحر الوافر)[10]:

تَظلُّ سوابقُ العَلْياءِ حَسْرى ذا شَدَّ الوزيرُ إلى المَعالي[1]

---

(1) مسدد الطعن: مقومة، السمر: الرماح، حائدة: مائلة، المرتجن: المختلط والفاسد.
(2) الغالي: الكثير الثمين، التودد: التحبب، الندى: الجود.
(3) الجنن: جمع جنّة، وهو كل ما وقى من سلاح وغيره.
(4) صافي الطوية: خالص الضمير والنية، الدغل: الحقد المكتتم.
(5) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ333.
(6) النهى: العقل، سابغ: واسع، الشيم: جمع الشيمة وهو الطبيعة والخلق.
(7) المنيف: المشرف، الحبوة: اشتمال الرجل في مجلسه، طياش: سريع وخفيف.
(8) الباسل: الشجاع، اللد، جمع الألد: أي الخصم العنيد، خصم: غلبه.
(9) نازح: بعيد، أمم: قريب.
(10) حيص بيص: ديوانه، جـ2، صـ247.

حميدُ الذِكر تُسفِرُ منْ عُلاهُ إذا ذُكرتْ دياجيرُ الليالي[2]

يُبيحُ الدَّثْرَ لا يرنو إليهِ وينظرُ للرَّعِيَّةِ في عَقالِ[3]

فشاعرنا يمدح الوزير ابن طراد الزينبي فهو دائمًا في رفعة وشرف فلا يسبقه في ذلك أحد، فرفعته تنبع من صفاته الطيبة وذكراه العطرة، كما أنه يهتم بحقوق الرعية وأموالها فلا يفرط بشيء منها ولو كان عقال بعير.

ويقول أيضًا في مدح الوزير عضد الدين وزير المستضيء (بحر الرمل)[4]:

يا جَواداً مُحْرِزاً سَبْقَ العُلى والنَّهى جَنَّبكَ اللهُ العِثارا[5]

وحماكَ اللهُ مِنْ صرْفِ الرَّدى أبداً ما أَنْجدَ السَّاري وغارا[6]

وبقيتَ الدهرَ متوفتورَ العُلى تبذلُ النَّائل أو تحمي الذِّمارا[7]

فُقْتَ أبْناءَ المَعالي يافِعاً وشَأوْتَ القومَ سَعْياً ونِجارا[8]

وسبقْتَ الرُّمْحَ عَزْماً ماضياً وفضَلْتَ الطَّوْدَ صبراً ووقَارا[9]

يا سَليمَ القلبِ مِنْ غِشٍّ يَرى خُدَعَ الآراءِ آثاماً وعارا

يصف حيص بيص رجاحة عقل الوزير عضد الدين ويدعو له فيشبهه بالجواد الذي حوى العقل وعلوَّ المكانة، راجيًا من الله أن يحميه من مصائب الدهر، وأن يديم عليه رفعته ومكانته، فهو واسع العطاء وحامي الضعفاء، وقد فاق أبناء السادة في علو المكانة ورفعة الشأن، أما عزمه فهو ماضٍ ثابت محقق الرماح، يفوق الجبال في صبرها وصمودها و وقارها، أما قلبه فنقيٌّ خالٍ من الغش والأحقاد.

ويمدح الوزير العادل شرف الدين أبا جعفر البلدي (بحر الطويل)[1]:

الطويل)[1]:

---

(1) حسرى، جمع حسير:أي الكليل والضعيف ،والمعنَّى، الشد: العدو الشديد.

(2) تسفر: تشرق، الدياجير، جمع الديجور: أي الظلام.

(3) الدثر: المال الكثير، ويطلق على الواحد وغيره، يرنو: ينظر، العقال: حبل يعقل به البعير، يقصد أنه يحفظ أموال الرعية ولا يتهاون بالقليل منها ولو كان عقال بعير.

(4) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ175.

(5) الجواد: الكرم، والفرس النجيب، النهى: العقل، العِثار: الزلل والشر والمكروه.

(6) صرف الردى: حدثانه ونوائبه، والردى: الهلاك، أنجد: صعد النجود، أي المرتفعات، أو دخل بلاد نجد، الساري: الذي يسير ليلًا، غار: أي هبط الأغوار وهي ما انخفض من الأرض، أو دخل بلاد الغور في تهامه، أو غور الأردن.

(7) الموفور: التام، العلى: الشرف والرفعة، النائل: العطاء، الذمار: كل ما يلزمك حمايته.

(8) فقت: علوت ورجحت، اليافع: الذي راهق العشرين أو ناهز البلوغ، شأوت: سبقت، السعي: المسعى، النجار: الأصل.

(9) العزم: التصميم، الماضي: النافذ، فضلت الطود: فقته رسوخًا، والطود: الجبل.

تخيَّرهُ الحَبْـرُ الإمـامُ يُعِـدُّهُ لضَرْبَةِ هـادٍ مـن عَصيٍّ وخـالـع[2]
أغَـرُّ لَبـيـقٌ بـالنَّعيـم كـأنَّـهُ سنى الصُّبْح أو بـدرٌ نقيُّ المَطالِع[3]
فلا زالَ متْبوعَ اللِّواءِ مُؤمَّلاً مُشاراً مُطاعَ الأمر ضخم الدَّسائع[4]

فيقول شاعرنا أن الخليفة المستنجد اختار ابن البلدي وزيرًا له؛ لذكائه ولينه وحكمته، وعلمه الغزير،لذا فأمره مطاع ومشورته متبعة، بالإضافة لجمال هيئته، فهو كالبدر ليلة تمامه، كما أشار إلى كرمه وعطائه.

ويقول مادحًا الوزير العادل ابن البلدي في قصيدة أخرى (بحر الوافر)[5]:

كـأنَّ جَـبـيـنَهُ سـيْـفٌ يَـمـان أجـادَ القَيْن صفْحَتـهُ صِقـالا[6]
يَـفـوقُ الزَّعْزعَ الـهـوْجـاءَ عزْماً وعـنـد أنـاتِـهِ الشُّـمَّ الجِـبـالا[7]
وبَـسَّـامٌ إذا بـكَـتِ المَـواضـي بـيـوْم الرَّوْع مُـحْـمَّـراً مُـذالا[8]

يمدح في هذه الأبيات قوته البادية على وجهه وذكاءه، فبأسه شديد وعزمه ماضٍ، كما أنه حليم صابر كالجبال الصم، ولا يهاب شيئًا يوم الحرب، وكل هذه الصفات لا تجتمع إلا لقائد يتسم بالحكمة والشجاعة وحسن التدبير.

وقال في القصيدة نفسها متحدثًا عن غزارة علمه وسداد رأيه وشجاعته[9]:

إذا عَـسلَتْ مَـزابـرهُ لخَـطْـبٍ مُـلِـمٍّ دَقَـتِ الأسَـلَ الطَـوالا[10]
تـكونُ سُطورُها سَلماً وحَرْباً إذا سُطِـرَتْ صِـلاتٍ أوْ صِـلالا[11]
إذا ضَـلَّتْ رَويَّـةُ أَلْمَـعِـيٍّ أصابَ الأمـر فـي الـرَّأي ارْتجالا[1]

---

(1) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ176.

(2) الحبر: العالم، الإمام: يقصد الخليفة المستنجد، يعده: يهيؤه، الهادي: العنق. العصى: العاصي، الخالع: ناقض العهد.

(3) الأغر: السيد الكريم الأفعال، اللبيق: اللين الظريف، سنى: الضوء، النقي: الصافي. المطالع، جمع مطلع: موضع طلوع الكوكب.

(4) اللواء: العلم، المشار: موضع المشورة، الضخم: العظيم، الدّسائع، جمع الدّسيعة: أي العطية الجزيلة.

(5) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ180.

(6) السيف اليماني: منسوب إلى اليمن، القين: صانع السيوف، وصيقلها. صفحة السيف: وجهه وجانبه، الصقال: الجلاء.

(7) الزعزع الهوجاء: الريح شديدة الهبوب التي تقتلع البيوت، الأناة: الحلم، الشُّم: المرتفعة العالية.

(8) المواضي: السيوف، يوم الروع: يوم الفزع وهو يوم الحرب، الذال: المرسل.

(9) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ180.

(10) عسلت: اهتزت، المزابر: الأقلام، الخطب: الأمر المهم، الملم: النازل، دقت: كسرت، الأسل: الرماح.

(11) السطور، جمع السطر: وهو الصف الواحد من الكتابة، الصلات، جمع الصلة: وهي العطية والجائزة، الصلال، جمع الصل: وهي الحية.

فهو هنا يقول: إذا حدث أمر جلل كسرت الرماح وتدار هذه الحرب بين السطور بالأقلام والكتب، فإذا استعصى الأمر على شديد الذكاء استطاع الممدوح الوصول إلى الرأي الصائب بدون عناء.

ومدحه في قصيدة أخرى بقوله (بحر البسيط)[2]:

مُطهَّمٌ سابـقٌ في كـلِّ مـأثـرةٍ مسيـرهُ الشَّدُّ لا التقريب والخَبَب[3]
فيه انـقيـادٌ إذ يُـدعى لمكرُمَـةٍ وذو جِماحٍ إلى غير العُلى شَغِبُ[4]
قد أدرك الغاية القصوى وأحرزها فكلُّ قَاصٍ على إحضاره صَقِبُ[5]
قد أدرك الغاية القصوى وأحرزها وفـي تنـكُّره نـارٌ لـهـا لَـهَـبُ[6]
إذا الكتائـب أعيى السيف سورتها وفـي تنـكُّره نـارٌ لـهـا لَـهَـبُ[7]

فالشاعر يصف الوزير ابن البلدي بأنه سبَّاق لكل فضيلة ومكرمة كأنه ورث هذه الفضائل كابرًا عن كابر، قد بلغ الغايات بحكمته وحسن تدبيره للأمور، فهو كالماء السلسبيل الصافي العذب في حال ودِّه، أما في حال غضبه وتنكره فجمر مشتعل. ويختم هذا المقطع مبينًا غزارة علمه يقول في حال عجز الجيش عن القتال فإن الذي يسانده في حربه الأقلام والكتب، وهذا إشارة إلى سعة علمه وحكمته، وحسن تدبيره للأمور.

ويمدحه في قصيدة أخرى قائلًا (بحر الكامل)[8]:

فيفلُّ صفَّ الجيش سطْرُ بلاغةٍ ويَـدُقَّ مُقتصدٌ طويـلاً يعْسِـلُ[9]
تُرْدي الكُماةَ سُطورهُ في طرسه فكـأنما فـي كُـلِّ حَرْفٍ مُقْتِلُ[10]
سـودٌ لرأي العيـن لكن لونُـها في الدَّارعينَ بكل رَوْع أشْكل[1]

---

(1) ضلَّت: تاهت، الرّوية: النظر والتفكير في الأمور، الألمعي: الذكي المتوقد. الارتجال: التكلم، أو البت في الأمور من غير روية.

(2) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ188.

(3) المطهم: الجواد البارع الجمال، المأثرة: الممكرمة المتوارثة، الشدّ: العدو التقريب: ضرب من العدو، الخبب: ضرب من السير السريع.

(4) الجماح: العناد، من جمح الرجل: أي ركب هواه فلا يمكن ردُّه، الشغب (بكسر الغين): من شغب عن الطريق: أي مال فهو شغب، والشغب أيضًا: الجدل(بكسر الدال).

(5) أدرك الغاية: بلغها، القصوى: البعيدة، أحرزها: حازها، القاصي: البعيد، إحضاره: عدوه. الصقب: القريب.

(6) السلسل السائغ: الماء العذب الصافي، الخصر: البارد، التنكر: التغير عن حال تسرك على حال تكرهها.

(7) السلسل السائغ: الماء العذب الصافي، الخصر: البارد، التنكر: التغير عن حال تسرك على حال تكرهها.

(8) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ194.

(9) يفلّ: يهزم، المقتصد: المعتدل بين الطول والقصر، ويريد به القلم، وربما قصد المنكسر أو المنقطع، الطويل: الرمح، يعسل: يهتز.

(10) تردى: تهلك، الكماة: الشجعان، الطرس: الصحيفة. مقتل (مفعل) أي عرضة للقتل.

في الساحة البيضاءِ مَشْقٌ رائعٌ لكنّــه فـي الهـام ضَرْبٌ أرْعَلُ[2]

يشير أيضًا في هذه الأبيات إلى علمه الواسع وسعة الأفق اللذين يتمتع بهما، فتتجلى بلاغته وفصاحته في كلماته حتى إنها لتهزم الجيوش وتحطم الرماح، فكل حرف يخرج منه كالسهم يصيب به أعداءه فيوقعهم صرعى، فيكتب في صحيفته سطورًا تنم عن بلاغة وحكمة، لكنه في الحرب ذو بأس شديد.

ومما قاله في مدح الخليفة المستضيء بأمر الله (بحر الكامل)[3]:

نــام الرَّعيَّــة والإمــامُ مُسَـهَّـدٌ جَمُّ الرَّويَّةِ في صلاحِ المُهْمَل[4]
فـي العدل والإحْسانِ مُمْتثلاً لما يتْـلوهُ منْ نصِّ الكتَابِ المُنْزَل
يَسْعى إلى إحرازِ كـلِّ حَميـدةٍ طَلْقَ النَّعامة أو شِكالِ الهيْكل[5]

يقول حيص بيص في مدحه لحكمة الخليفة المستضيء وعدله في الرعية، أنه يصلح كل أمر أُفسد، ويحسن إلى الناس ويعدل بينهم ملتزمًا بالأحكام والتشريعات الواردة في القرآن الكريم، فهو يسعى كونه خليفة المسلمين إلى إحراز كل فضل والتمتع بكل مكرمة، وعلى رأسها الحكمة وحسن التدبير والعدل بين الناس.

توصلت الباحثة في هذا البحث لعدة نتائج، هي كالتالي:

1- من خلال ما سبق يتضح أن الكرم والجود من أكثر القيم والصفات التي حرص حيص بيص على وصف ممدوحيه بها، وذلك لأنه كان شاعرًا مدَّاحا في المقام الأول، والهدف من المديح عادة الرغبة في نيل العطايا، حتى ولو لم يصرح بها، وأكثر طائفة مدحت بالكرم فئة الوزراء؛ وذلك لكثرة الوزراء الذين تعاقبوا عليه حال حياته، وكثرة اتصاله بهم وانخراطه معهم، وبالتالي كثرة العطايا، تليها فئة الخلفاء والسلاطين.

2- وتأتي قيمة الشجاعة في المرتبة الثانية بعد الكرم، وأكثر فئة مدحهم بها الخلفاء والسلاطين، فهم المحرك الأساسي للدولة، فيحمون حماها ولا تتقدم الدولة ولا تأمن إلا بهم، وتخرج الفتوحات بأمرهم وهم على رأسها، ومن أكثر الخلفاء الذين مدحهم حيص بيص الخلفية

---

(1) السود: يقصد السطور أو الحروف، الروع: الفزع والحرب، الأشكل: ما فيه حمرة وبياض مختلطان.

(2) الساحة البضاء: يقصد بها الصحيفة، المشق: من شق الخطّ شقا أي مده، الرائع: الذي يعجب بحسنه، الضرب الأرعل: الذي يقطع اللحم فيدليه.

(3) حيص بيص: ديوانه، جـ3، صـ302.

(4) مسهد: سهران، الروية: النظر والتفكير في الأمر، المهمل: المتروك.

(5) الطلق: العدو شوطا، النعامة: الطائر المعروف، الشكال في الخيل: أن تكون ثلاث قوائم محنجلة وواحدة مطلقة، وقيل العكس، الهيكل: الفرس المرتفع، يقصد عدو نعامة أو فرس.

"المسترشد بالله" والسلطان "مسعود"، وأتت فئة الوزراء في المرتبة الثانية.

3- وتشغل صفة الحكمة وحسن التدبير المرتبة الثالثة من اهتمام الشاعر وأكثر من مُدح بها فئة الوزراء، تليها فئة الخلفاء والسلاطين.

المصادر والمراجع :

أولًا- المصادر:

- شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي البغدادي المعروف ب(حيص بيص) ت 574هـ: ديوانه ، تحقيق مكي السيد جاسم، وشاكر هادي شكر، منشورات وزارة الإعلام، العراق 1974م.

ثانيًا- المراجع:

- تاج الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، د.ت.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الصادر 1978م.
- عماد الدين الأصبهاني، خريدة القصر، القسم العراقي، ت: محمد بهجة وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1955.
- ابن العماد شهاب الدين الدمشقي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ت: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، د.ت.
- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى.
- ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة دار المعارف، ببيروت، 1991م.
- محسن الأمين، أعيان الشيعة، ت: حسن الأمين، دار التعارف، بيروت 1983م.
- محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، رتبه وهذبه حسان عبد المنان، طبعة بيت الأفكار، 2004م.
- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغريب الإسلامي،د.ت.